

معالم من حياة اليهود المغاربة



عبد الله أينت إيشو

عضو هيئة التحرير

أستاذ التاريخ والجغرافيا - المملكة المغربية

abdelah1983@gmail.com

إن محاولة البحث عن التاريخ الحقيقي لاستقرار اليهود بالمغرب ، يكتنفه الغموض ، وذلك نظرا لعدم الاستقرار ولغياب الأدلة الكافية ، ويرجع الباحث حاييم الزعفراني تواجد اليهود بالمغرب إلى عهود سحيقة " **فجذور يهودية الغرب الإسلامي تمتد في ماض سحيق ، إذ يعتبر اليهود تاريخيا ، أول مجموعة غير بربرية وفدت على المغرب ، وما تزال تعيش فيه إلى يومنا هذا** " ^(١) وبسأنده في هذا الرأي إبراهيم حركات حيث يقول ، "وقد كان مجيئهم إلى الشمال الإفريقي في هجرات متقطعة كانت أولاها صحبة الفينيقيين ، والواقع أن اليهود تمكنوا من معايشة المسلمين في أجزاء كثيرة من المغرب" ^(٢).

إن هذا الغموض يفسح المجال لعدة فرضيات وأراء تتضارب مضامينها ، فهناك فرضية تعتبر دخول اليهود إلى المغرب كان نتيجة تعقب قائد جيوش الملك داود ، وهو يواب بن سرتيا لسكان فلسطين إلى منطقة شمال إفريقيا وخصوصا منطقة درعة حوالي القرن العاشر قبل الميلاد ^(٣).

أمام تضارب هذه الفرضيات تضيق حقيقة تاريخ اليهود بالمغرب ، ويبقى الأمر الوحيد المتفق عليه من قبل الباحثين والمؤرخين هو كون اليهود ثاني عنصر بشري استقر بالمغرب بعد الأمازيغ.

لقد انتشر اليهود بشكل واسع في العديد من مناطق المغرب ، ويلاحظ أن الغالبية العظمى منهم تتركز إما في الحواضر الكبرى ذات الأهمية الاقتصادية ، مثل حاضرة فاس ، سجلماسة ، أسفي. وقد تمكن اليهود طيلة القرون التي استقروا خلالها بالمغرب ، من تكوين فئة اجتماعية متميزة عن السكان المحليين ، سواء من الناحية الدينية أو العرقية أو التقاليد. وتعتبر مرحلة الفتح الإسلامي من أهم الفترات التي برز فيها اليهود وتمتعوا خلالها بمجموعة من الحقوق والامتيازات.

يعتبر الجانب الديني من أهم المميزات التي ميزت المجتمع اليهودي عن باقي سكان المغرب عبر التاريخ خاصة في الفترة الإسلامية حيث كان اليهود حريصين على أداء تعاليم دينهم وتجلي ذلك في مختلف عاداتهم وتقاليدهم والاحتفال بالأعياد والمناسبات الدينية والمراسيم الجنائزية ، ومن المظاهر التي تبين تشبث اليهود بديانتهم زيارتهم لمقابر أوليائهم وتقديسهم ، وتجدر الإشارة إلى أنه يوجد بالمغرب ٦١٢ ضريحا للأولياء اليهود من بينهم ٢١٤ بالأطلس الكبير ، ١٠٢ بالساحل و ٣٢ بدرعة وصاغرو. ^(٤)

أما على المستوى الاقتصادي فقد لعب اليهود دورا كبيرا في تحريك اقتصاد المغرب إبان فترات استقرارهم وتجلي ذلك من خلال اهتمامهم بالصناعة خاصة التقليدية والحرف ، ويرجع ذلك أولا إلى تعاليم دينهم التي تفرض على كل يهودي أن يعلم ابنه حرفة منذ صغر سنه ، "يعتبر تعليم الابن مهنة من المهن ، فريضة شرعية ... وعموما يتعلم الولد مهنة والده مثل الصباغة والنجارة" ^(٥) والسبب الثاني هو براعتهم وإتقانهم لمختلف الحرف اليدوية مثل صباغة الذهب والفضة.

^١ حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب (تاريخ- ثقافة- دين) ترجمة

أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ الدار البيضاء ص ٩

^٢ إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ: ج ١ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ ، دار الرشاد

الحديثة ، ص ٥٦

^٣ حاييم الزعفراني: المرجع السابق ، ص ٩

^٤ جريدة الاتحاد الاشتراكي : السبت ٢٩ يناير ٢٠٠٠ ، العدد ٦٠١٥

^٥ حاييم الزعفراني ، ص ٨٤

إنجلترا^(٩). ومن ثم لا عجب إذا كان القاسم المشترك بين هذه الفئة هو الثراء والغنى ، ولا عجب أيضا إذا حماهم الملوك وضاعفوا عليهم الجزية في آن واحد ونقصد هنا بالخصوص يهود فاس .

أما الأغلبية الساحقة من عامة اليهود فتعيش من التجارة الصغيرة والحرف وقد استمرت هذه الوضعية إلى حين رحيل أغلبية اليهود عن المغرب عند بداية القرن ٢٠ م ، ويرجع ذلك إلى مجموعة من العوامل "بعد قيام دولة إسرائيل ١٩٤٨ واستقلال المغرب ١٩٥٦ بدأنا نشاهد تمزق الطائفة وهجرة الأغلبية الساحقة من أفرادها ، وهكذا حكم بالاختفاء نهائيا على مجتمع ظل مستقرا في البلد منذ ما يقرب من ألفي سنة^(١٠) . لكن السبب الرئيسي هو قابلية هذه الطائفة لتبني الأيديولوجية الصهيونية والاستعداد للالتحاق بموطن أجدادهم- كما يدعون- فتشبت اليهود بديانتهم جعلهم ينتظرون اليوم الذي سوف يرحلون فيه إلى فلسطين والاستقرار بها .



لقد انتهى تواجد اليهود بالمغرب بشكل شبه كلي بعد فترات استقرار دامت أزيد من ألفي سنة ، تمكنوا خلالها من ترك بصماتهم في مختلف المجالات الاقتصادية والاجتماعية والثقافية والسياسية ، كما أنهم تأثروا بالسكان المحليين وأخذوا عنهم العديد من العادات والتقاليد ، ولم يعد من ذلك التاريخ سوى ذكريات يعتز بها يهود المغرب ، وما زال صداها يتردد كذلك في روح المهاجرين وتدوي في موسيقاهم وغنائهم وفلكلورهم وشعائهم ، وفي مزاراتهم الجماعية لقبور أوليائهم المحليين .

المصادر والمراجع:

- إبراهيم حركات : المغرب عبر التاريخ: ج ١ ، الطبعة الثانية ١٩٨٤ ، دار الرشاد الحديثة .
- حاييم الزعفراني: ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب (تاريخ- ثقافة- دين) ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم ، الطبعة الأولى ١٩٨٧ الدار البيضاء .
- عصام البوستاوي ، المعاملات الاقتصادية اليهودية في مجال سكورة انطلاقا من وثائق تاريخية ، بحث لنيل الإجازة ٢٠٠٤ .

حقوق الصور الواردة بالمقال محفوظة لمؤسسة التراث الثقافي لليهود المغاربة ، معرض الصور الفوتوغرافية التاريخية برواق المتحف اليهودي بالدار البيضاء — نوفمبر ٢٠٠٦ .

٩ إبراهيم حركات ، المغرب عبر التاريخ ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى الدار البيضاء سنة ١٩٨٥ ، ص ٤٨٢
١٠ حاييم الزعفراني ، المرجع السابق ، ص ٢٨٩

لقد احتكر اليهود مجموعة من الحرف ، خاصة صياغة المعادن النفيسة ، والظاهر أن المغاربة المسلمين هم الذين هيئوا الفرصة أمام اليهود كي يحتكروا هذه المهنة تبعا لاعتقاداتهم الدينية ، نقول هذا الكلام بناء على شهادة حسن الوزان مؤداه: **"لا يمكن لأي مسلم أن يمارس مهنة صائغ ، إذ يقال أن بيع المصوغات الذهبية والفضية بتمن أعلى مما يساويه وزنها يعتبر ربا ، ولكن الملوك يسمحون لليهود بالقيام بهذا العمل"**^(٦) .



إلى جانب الأنشطة الصناعية نجد أن اليهود اهتموا كذلك بالفلاحة خاصة في المناطق الفلاحية والبوادي المغربية ، وكان اليهود ينتجون مختلف المواد الزراعية من حبوب وأشجار واهتموا كذلك بتربية الماشية . رغم هذا الاهتمام بالفلاحة فإن عدد اليهود الذين كانوا يشتغلون في هذا الميدان قليل مقارنة مع القطاعات الاقتصادية الأخرى ، ويعزى ذلك إلى "انعدام الأمن أساسا ، ولأسباب اقتصادية واجتماعية أيضا وربما يرجع ذلك لاشتماز اليهود من الأعمال الجسمانية الشاقة ذات المردود القليل بالرغم من ضياع الوقت الكثير"^(٧) .

تعد التجارة أهم القطاعات الاقتصادية التي اهتم بها اليهود وقد ساهم في ذلك استقرارهم منذ وقت مبكر بالمراكز التجارية الكبرى مثل فاس وسجلماسة ودرعة ، وقد مكّنهم هذا من المشاركة في التجارة القادمة من السودان ، وفي الفترات المتأخرة من استقرار اليهود بالمغرب يمكن أن نميز بين فئتين من التجار اليهود:

الفئة الأولى: تهتم بالتجارة الخارجية وهي الفئة الغنية التي تتوفر على رؤوس الأموال الكبيرة ولها علاقات مع المخزن وكانت تحتكر تصدير المواد (الحبوب ، الجلد والشموع ...) .

الفئة الثانية: تهتم بالتجارة الداخلية ، وهم تجار التقسيط الصغار والتجار المتجولين وكانت تجارتهم تشمل جميع المواد مثل الحبوب والجلود والمعادن النفيسة .

استطاع اليهود بفعل مساهمتهم الفعالة في الأنشطة الاقتصادية من تحسين الوضعية الاقتصادية للمغرب^(٨) وهو ما أهلها إلى تقلد مناصب سامية في المخزن المغربي "فقد احتل عدد مهم منهم أدوار بارزة في الميدان الدبلوماسي وكان ميمران مستشارا لدى مولاي إسماعيل ، كما تولى بن عطار باسم المغرب عقد معاهدة ١٧٢١ مع

٦ الحسن الوزان ، ص ٢١٩

٧ حاييم الزعفراني ، المرجع السابق ، ص ١٢٠

٨ عصام البوستاوي ، المعاملات الاقتصادية اليهودية في مجال سكورة انطلاقا من وثائق تاريخية ، بحث لنيل الإجازة ٢٠٠٤ ، ص ١٠